جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

موقف الدكتور شوقي ضيف من المنجز البلاغي للإمام السكاكي دراسة في نقد النقد

إعداد

د/ محمد عبد الفتاح إبراهيم النجار

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. أكتوبر)

(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م)

علمية - محكمة - نصف سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

موقف الدكتور شوقي ضيف من المنجز البلاغي للإمام السكاكي دراسة في نقد النقد

محمد عبد الفتاح إبراهيم النجار

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، إيتاي البارود، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: mohammedelnggar.419@azhar.edu.eg

الملخص:

تَعرَّض الدكتور شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) لنقد الإمام السكاكي انتقادًا لاذعًا، فقد وصف كتابه مفتاح العلوم بالتعقيد والجمود، ووصمه بكثير من المثالب والعيوب منها: ركاكة الأسلوب وفساد الذوق، ولاشك أن صدور مثل هذا النقد اللاذع من قيمة علمية ونقدية كالدكتور شوقي ضيف، كان له أثر بالغ وصدى كبير على السكاكي ومفتاحه، وإقبال الناس على قرائته وإقرائه، فلم يسلم السكاكي من اللوم والنقد على مر السنين دون تثبت أو تحقيق؛ من أجل ذلك تعقبت واستقصيت في هذا البحث نقدات الدكتورشوقي ضيف للإمام السكاكي، محاولًا رصدها وتحليلها ومناقشتها مناقشة علمية موضوعية، ومقارنتها بما هو كائن في منجز السكاكي البلاغي: مفتاح العلوم؛ لأستكشف من خلاله إلى أي مدى كان الدكتور شوقي ضيف مقسطًا في نقده، ومعتمدًا على منهج علمي قائم على البينات والبراهين، أم أن حكمه كان مبنيًا على استقراء ناقص لا يصح من خلاله إطلاق الأحكام العامة على السكاكي وكتابه، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون معتمدًا على المنهج التحليلي النقدي، كما تَطلَّب أيضا أن يكون في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، المقدمة: تحدثت فيها عن موضوع البحث والفكرة التي يقوم

عليها بإيجاز، وسر اختياره، ومنهجه وخطته، أما التمهيد فقد احتوى على ثلاثة مطالب: المطلب الأول: السكاكي ومنهجه في كتاب مفتاح العلوم، المطلب الثاني: شوقي ضيف وتقييمه للمنجز البلاغي للسكاكي، المطلب الثالث: التعريف بمفهوم نقد النقد، المبحث الأول: نقد شوقي ضيف للسكاكي بسبب التعقيد والجمود (عرض، وتحليل، ونقد) المبحث الثاني: نقد شوقي ضيف للسكاكي بسبب فساد الذوق (عرض، وتحليل، ونقد) ثم الخاتمة: ورصدت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج وما اقترحته من توصيات.

الكلمات المفتاحية: السكاكي، شوقي ضيف، مفتاح العلوم، البلاغة تطور وتاريخ.

Shawki Dhaif's position on the rhetorical achievement of Imam Al-Sakaki, a study in the criticism of criticism

Mohamed Abdel-Fattah Ibrahim Al-Najjar
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Itai El-Baroud, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: mohammedelnggar.419@azhar.edu.eg

Abstract:
Dr. Shawki Dhaif, in his book (Rhetoric, Evolution and History), was severely criticized by Imam al-Sakaki. He described his book Miftah al-Ulum with complexity and rigidity, and stigmatized it with many flaws and defects, including: poor style and corruption of taste. There is no doubt that the issuance of such scathing criticism is of scientific and critical value. Like Dr. Shawqi Dhaif, he had a great impact and a great echo on Al-Sakaki and his key, and the people's desire to read and read it. Al-Sakaki was not spared from blame and criticism over the years without proof or investigation; For this reason, I traced and investigated in this research the criticisms of Dr. Shawki Dhaif of Imam Al-Sakaki, trying to monitor, analyze and discuss them in an objective scientific discussion, and compare them with what is in Al-Sakaki's rhetorical achievement: the key to the sciences; To explore through him the extent to which Dr. Shawqi was a fair guest in his criticism, and relied on a scientific method based on evidence and evidence, or was his judgment based on incomplete induction through which it is not correct to make general judgments on Al-Sakaki and his book, and the nature of the research required that it be based on the method The critical analytical, as it also required that it be in an introduction, a preface, two chapters, and a conclusion, the introduction: I spoke about the subject of

the research and the idea on which it is based briefly, the secret of its selection, its approach and its plan. His book, Miftah al-Ulum, the second requirement: Shawqi Dhaif and his evaluation of Sakaki's rhetorical achievement, the third demand: Introducing the concept of criticism of criticism, the first topic: Shawqi Dhaif's criticism of Sakaki due to complexity and inertia (presentation, analysis, and criticism) The second topic: Shawqi Deif's criticism of Sakaki due to corruption of taste (Presentation, analysis, and criticism) and then the conclusion: in which the most important findings and recommendations were noted.

Keywords: Al-Sakaki, Shawki Deif, Miftah Al-Ulum, Rhetoric, Development and history.

المقدمة

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلا»[(١)]

الحمد لله رب العالمين، عظيم الفضل، جميل الستر، وارف الإحسان، بفضله تتنزل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم صلِّ عليه صلاة تكرمنا بها بنور العلم والفهم ، وتخرجنا بها من ظلمات الجهل والوهم، وتوضح لنا بها ما أُشكِلَ حتي نعلم ونفهم، فسبحانك تعلم ولا نعلم، وإنك أنت علاَّم الغيوب... وبعد.

فيُعَد الدكتور شوقي ضيف من أهم الشخصيات المؤثرة في مجال الدراسات الأدبية والنقدية في العصر الحديث ، ولا نبالغ إذا أطلقنا عليه رائد الدراسات الأدبية والنقدية في العصر الحديث ، فله العديد من الدراسات النفيسة التي عم نفعها، وانتشر صيتها، من أهمها: سلسلته القيمة التى تناولت تاريخ الأدب العربي واستوعبت عصوره المتلاحقة ، وله أيضًا أكثر من أربعين كتابًا في الدراسات القرآنية والنقدية والبلاغية واللغوية ، كما أسهم بشكل واضح في تحقيق تراثنا العربي والإسلامي.

وللدكتور شوقي ضيف أثر واضح وفضل كبير على كل دارسي علوم اللغة العربية في العصر الحديث ، وكانت آراؤه وتوجيهاته محل تقدير واهتمام من طلابه الذين أصبحوا روادًا وأعلامًا في الثقافة العربية والإسلامية، فمنهم من حصل على جوائز الدولة التقديرية ، ومنهم من حصل على جائزة الملك

---

(١) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، باب الأدعية (ذكر ما يستحب للمرء سؤال الباري جل وعلا تسهيل الأمور عليه إذا صعبت) حديث رقم: ٩٧٤ ت : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م. ، وهو حديث إسناده صحيح ، وصححه الحافظ ابن حجر في: أمالي الأذكار فيما نقله ابن علان: ٢٥/٤ ت : كيلاني محمد خليفة ، مؤسسة قرطبة – بيروت.

فيصل للدراسات الأدبية ، ومنهم من تولى رئاسة المجامع اللغوية والهيئات الثقافية في عدد من الدول العربية.

وقد تعرَّض الدكتور شوقي ضيف في كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) لنقد الإمام السكاكي انتقادًا لاذعًا ، فقد رماه بضعف الأسلوب وفساد الذوق ، ووصف كتابه مفتاح العلوم بالجفاف والجمود ، ووصمه بكثير من المثالب والعيوب ، ونفى عنه كل جمال فقال : "وما للجمال والسكاكي إنه بصدد وضع قواعدَ وقوانينَ كقوانين النحو وقواعده، وهي قواعد وقوانين تُسبَك في قوالبَ منطقية جافّة أشد ما يكون الجفاف "(١).

كما زعم الدكتور شوقي ضيف أن السكاكي قد أشاع في مفتاحه " كثيرًا من العسر والالتواء، بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة ، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابةً بل دغلًا ملتفًا لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة، "(٢)، ولاشك أن صدور هذا النقد اللاذع للسكاكي من قيمة لغوية ونقدية مثل الدكتور شوقي ضيف كان له أثر بالغ وصدى كبير، فقد تلقف هذا النقد أكثر الدارسين، وروجوا له في كتبهم دون تثبت أو تحقيق ، فلم يسلم السكاكي من النقد واللوم على مر السنين.

من أجل ذلك تتبعت في هذا البحث نقدات الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي ، محاولًا رصدها وتحليلها ومناقشتها مناقشة علمية موضوعية ، ومقارنتها بما هو كائن في منجز السكاكي البلاغي: مفتاح العلوم ؛ لأستكشف من خلاله إلى أي مدى كان الدكتور شوقي ضيف مقسطًا في نقده ، ومعتمدًا على منهج علمي قائم على البينات والبراهين ، أم أن حكمه كان مبنيًا على

(١) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ د شوقي ضيف:٢٨٨ ، دار المعارف ، القاهرة، الطبعة الثانية (بدون تاريخ).

(٢) المصدر السابق:٢٩٦ .

استقراء ناقص لا يصح من خلاله إطلاق الأحكام العامة على السكاكي وكتابه.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون معتمدًا على المنهج التحليلي النقدي، كما تَطلَّب أيضا أن يكون في مقدمة ، وتمهيد ، ومبحثين وخاتمة.

المقدمة : تحدثت فيها عن موضوع البحث والفكرة التي يقوم عليها بإيجاز، وسر اختياره، ومنهجه وخطته.

التمهيد : وقد احتوى على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإمام السكاكي ومنهجه في كتاب مفتاح العلوم.

المطلب الثاني:الدكتور شوقي ضيف وتقييمه للمنجز البلاغي للإمام السكاكي.

المطلب الثالث: التعريف بمفهوم نقد النقد.

المبحث الأول : نقد الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي بسبب التعقيد والجمود (عرض، وتحليل، ونقد)

المبحث الثاني : نقد الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي بسبب فساد الذوق (عرض ، وتحليل ، ونقد)

ثم الخاتمة : ورصدت فيها أهم ما توصلت إليه من نتائج وما اقترحته من توصيات.

ثم ثبت بأهم المصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات.

وبعد... فلا أدعي أنني جئت بالنفيس النادر الذي لم يات به أحد ، ولا أزعم أنني أدركت الكمال ، بل هو جهد المقل ، وترجل على الطريق في سبيل نهضة بلاغية مأمولة ، فإن أصاب هذا البحث مرماه فذاك ما سعيت إليه دؤبا، وإن أخطأ هدفه فهو رأي المتعَب العاجز ، يُعرَضُ له التعديل والتنقيح ، ويحظى بالإصلاح والتهذيب ؛ لأن العلم لا يقف عند رؤية باحث مهما أُوتِي عقلًا وإدراكًا وفهمًا، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

فيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الإمام السكاكي ومنهجه في كتاب مفتاح العلوم.

المطلب الثاني:الدكتور شوقي ضيف وتقييمه للمنجز البلاغي للإمام السكاكي.

المطلب الثالث: التعريف بمفهوم نقد النقد

المطلب الأول:

الإمام السكاكي ومنهجه في كتاب مفتاح العلوم.

أرى أن من البر بهذا البحث، ومن التمهيد المستحب لهذه الدراسة الإشارة ولو بأسطر قليلة للإمام السكاكي ومنهجه في كتابه مفتاح العلوم؛ لأن كثيرًا من نقاده يعرف لقبه وكتابه ، لكنهم لا يعرفون إلا الندر اليسير عن حياته ونشأته وظروف تأليف كتابه، والسكاكي هو سراج الدين يوسف بن محمد أبو يعقوب الخوارزمي السكاكي ، وُلِد في الثالث من شهر جمادى الأولى عام ٥٥٥هـ الموافق عام ١١٦٠ م[١] في قرية من قرى خوارزم التى كانت موطنًا لكثير من علماء الإسلام والعربية كالزمخشري، والرازي، والمطرزي وغيرهم من أعلام الأمة الإسلامية والعربية، وقد ذكرتْ بعض الروايات أن مولده كان في قرية سكاكة بنيسابور، وقِيل باليمن ، وقِيل بالعراق[٢] ، والحق أنه ولد في خوارزم.

وقد أجمع المترجمون على أن السكاكي في طفولته لم يكن مهتمًا بحفظ القرآن الكريم، ولا بالعلم، بل كان يعمل حدادًا، لأن أسرته كانت تحترف صناعة المعادن وسكِّها؛ ومن ثم شَاعَ لقبه (السكاكي)، وظل هكذا حتى نهاية العقد الثالث من عمره حتى حدثت نقلة نوعية عجيبة في حياته، إذ ألقى الله

(١) ينظر: تاج التراجم في طبقات الحنفية : قاسم بن قطلوبغا السودوني أبو الفداء: ص٦٠ ت : محمد خير رمضان يوسف ، دار القلم – دمشق الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ –١٩٩٢م . والأعلام: خير الدين الزركلي الدمشقي: : ٢٩٤/٩ ، دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة عشر – مايو ٢٠٠٢ م.

(٢) ينظر : الفوائد البهية في تراجم الحنفية: أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي: ٣٠٢ ،عُنِيَ بتصحيحه وتعليق بعض الزوائد عليه: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني، مطبعة دار السعادة – الزيتون ، القاهرة (بدون تاريخ)

في قلبه حب العلم والتفرغ لتحصيله، فإذا به يُقْبِلُ عليه حفظاً ودرساً ، وقد ساعده على ذلك بيئته التى كان يعيش فيها، فقد كان جُل فتيان خوارزم يحرصون حرصًا شديدًا على طلب العلم وتحصيله، حتى قال عنهم المقدسي:" أهل خوارزم أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب، وأقل إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي قد تقدم وزجا"[١] كما كانت خوارزم موطنًا لكثير من العلماء الذين كانوا قبلة للطلاب والدارسين كالزمخشري والرازي والمطرزي وغيرهم ممن تزخر بهم كتب التاريخ والسير[٢].

وقد تلقى السكاكي تعليمه في بيئته خوارزم، وكانت معارفه وثقافاته من علمائها، فقد تتلمذ على أيدي عدد من شيوخها منهم: الحاتمي في البلاغة، وسديد الدين الخياطي ، وابن صاعد الحارثي ، ومحمد بن عبد الكريم التركستاني في الفقه الحنفي، وقد اشتهر السكاكي في عصره شهرة واسعة ، حتى قال عنه ياقوت الحموي: " هو فقيه متكلم متفنن في علوم شتى، وهو

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي: ص ٢٨٤ ، مطبعة مدينة ليدن المحروسة عام ١٩٠٦م.

(٢) ينظر: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي: ٦ / ٢٨٤٦ ، ت : إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي: ١٩٩٣م. والجواهر المضية في طبقات الحنفية: عَبْد القَادِر القُرَشي: ٢ / ٢٤٥ ، ت: عبد الفتاح محمد الحلو ، دار هجر: ١٤١٣ – ١٩٩٣ ، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة :جلال الدين السيوطي : ٢ / ٣٦٤ ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، لبنان ، صيدا. وشذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي: ٥ / ١٢٢ ، ت: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير: ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

أحد أفاضل العصر الذين سارت بذكرهم الرُّكبان"[١] ، وقد توفي رحمه الله بخوارزم سنة ست وعشرين وستمائة ، وقيل : سبع وعشرين وستمائة للهجرة[٢].

ومع تنوع معارف السكاكي ونبوغه في كثير من العلوم والفنون إلا أن إنتاجه العلمي يُعد قليلًا إذا ما قيس بعلو قدره، وسعة علمه، وتبحره في عديد من المعارف ، فلم يُطبَع من مؤلفاته إلا (مفتاح العلوم)، وقد ذكر بعض المؤرخين أن من مؤلفاته أيضًا كتاب: (شرح الجمل)[٣] وهو شرح لكتاب الجمل الذي ألفه الإمام عبد القاهر الجرجاني، وله أيضًا كتاب: (التبيان)[٤]، ورسالة في علم المناظرة[٥].

والذي يعنينا في هذا المقام هو كتاب مفتاح العلوم الذي جمع فيه السكاكي بمقدرة عجيبة وترتيب دقيق علوم الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والقوافي والأوزان وعلم الاستدلال، وقد كان تأليف السكاكي لهذا الكتاب تلبية لحاجة ملحة ورغبة أكيدة لأبناء عصره، وقد أبان عن تلك الرغبة في مقدمة كتابه، حيث قال: " ولما رأيت حال أهل زماني الفاضلين الكاملي الفضل قد طال إلحاحهم عليّ في أن أصنف لهم مختصرا يحظيهم بأوفر حظ

(١) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي : ٦ / ٢٨٤٦.

(٢) الفوائد البهية في تراجم الحنفية: أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي: ٢٣١.

(٣) أشار إليه أبو يعقوب السكاكي في كتابه: مفتاح العلوم : ص٤٢ و٧٢ ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زوزو، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية:١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

(٤) ذكره عبد الرحمن بن محمد بن خلدون في مقدمته: ١/ ٥٢٢ ، ت: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

(٥) أشار إليها جرجي زيدان في كتابه: تاريخ آداب اللغة العربية ٤٩/٣ ، مؤسسة هنداوي: ٢٠١٣م. والأعلام للزركلي: ٢٩٤/٩.

منه ، وأن يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكي، صنفت هذا وضمنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية، وسميته: مفتاح العلوم وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، القسم الثاني في علم النحو، القسم الثالث في علمي المعاني والبيان"[١].

والذي يتأمل ترتيب السكاكي لعلوم كتابه يجده متوافقًا مع ما استُحدِث من الدراسات اللسانية، فهم يبدأون دراساتهم بتناول الأصوات من حيث مخارجها وصفاتها، ثم يتناولون الكلمة من حيث بنائها وما يحدث فيها من إبدال وإعلال، وما يتعلق بها من مباحث علم الصرف، ثم يتناولون علم النحو فالبلاغة، وقد أشار السكاكي لتلك الطريقة الفذة في صدر كتابه، حيث قال:" وما ضمّنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعدما ميّزت البعض عن البعض التمييز المناسب، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك، ومهدت لكل من ذلك أصولا لائقة ، وأوردت حججا مناسبة ، وقرّرت ما صادفت من آراء السلف – قدّس الله أرواحهم – بقدر ما احتملت من التقرير، مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قَلَّت عناية السلف بها ، وإيراد لطائف مقنّنة ما فتقّ أحد بها رتق أذن"[٢]

وقد نال مفتاح العلوم شهرة واسعة – خاصة القسم الثالث منه الخاص بالبلاغة– حتى صار قبلة للدارسين، وأصبح هدفًا للشروح والتعليقات، فعكف عليه العلماء يتدارسونه ويشرحونه الشرح تلو الآخر، حتى كُتِبَت حوله سلسلة ضخمة من الشروح والتعليقات والإختصارات ، كان من أشهرها كتاب (التلخيص) للخطيب القزويني(ت٧٣٩) والذي ألف بعد ذلك شرحا لهذا

(١) مفتاح العلوم للسكاكي : ٧

(٢) المصدر السابق:٨

التلخيص سماه (الإيضاح)، ومن قبل ذلك لخص بدر الدين بن مالك (ت٦٨٦هـ) المفتاح في كتابه:(المصباح في علوم المعاني والبديع)، لكن تلخيص الخطيب القزويني كان أكثر شهرة وقبولًا ؛ لمناقشاته الثرية ، وإضافاته الجيدة ، وروحه الأدبية الفنية التى تسري في صفحاته ؛ لذلك أقبل العلماء على شرح تلخيصه، وكان من أشهرهم: بهاء الدين السبكي (ت٧٧٣هـ) في كتابه: (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) وسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ) في (المطول) وأبو يعقوب المغربي (ت١١١٠هـ) في كتابه (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح)، وممن نظمه شعرًا جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) في كتابه (عقود الجمان في المعاني والبيان)، وعبد الرحمن الأخضري (ت٩٨٣هـ) في (الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون).

وظل السكاكي ومن تبع نهجه واقتفى أثره مهيمنين على الدرس البلاغي حتى جاء العصر الحديث ليشهد حالة من النقد اللاذع والهجوم الضاري على بلاغة السكاكي ومفتاحه ، فقد اتهمه جُل المحدثين بأنه أفسد البلاغة وأحالها ضربًا من ضروب الرياضة الذهنية التي لا صلة لها بالفن والذوق، مع أن المفتاح لم يكن كتابا في علم البلاغة فحسب ، ولم يذكر السكاكي في كتابه كله كلمة علم البلاغة ، بل الذي وصفه بالعلم هو علم الادب، وهذا أمر مختلف تمامًا، وأظن أن جُلَّ من انتقد السكاكي، ووجه إليه هذه الأحكام لم يقرأه قراءة كاملة، وإنما اقتصر على قراءة الجزء الثالث منه الخاص بالبلاغة، وربما يكون أكثرهم لم يقرأه ، واعتمد في أحكامه على شروحه وتلخيصاته، ولم يتنبهوا لمراد السكاكي ومقصوده الأعظم من كتابه، وهو التقسيم الثلاثي الأكبر: الصرف والنحو والبلاغة ، بل شغلهم التقسيم الثلاثي الشائع لعلم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، مع أنه لم يكن هذا التقسيم ثلاثيًا عند السكاكي؛ بل كان البيان عنده شعبةَ من المعاني، وهذا أمر مهم جدا في فلسفة السكاكي في التقسيم والتبويب بخلاف تقسيمات الشراح الذين أتوا من

بعده ، قال السبكي في عروس الأفراح:"علم البيان باب من أبواب المعاني وإنما فصل وأُفرد كما يفرد علم الفرائض عن الفقه"(١).

أما علماء النحو فلم يمنحوا مفتاح العلوم أي اهتمام ، ولووا رؤسهم عنه، وقالوا لسنا بحاجة إلى السكاكي ، فلنا في علم النحو والصرف القِدحَ المُعلَّى ، وبضاعة السكاكي فيه بضاعة مزجاة ، مع العلم أن تناول السكاكي لعلم النحو كان تناولًا عبقريًا غير مسبوق ، فقد لخص النحو كله في ثلاثة مصطلحات: الفاعل والقابل والأثر ، والفاعل هو العامل ، والقابل هو المعمول ، والأثر هو الأثر الإعرابي، ولا شك أن هذه المصطلحات كانت موجودة من قبل عند علماء النحو المتقدمين بشكل ما ، لكن هذا الجمع بهذا الضبط والإحكام لم نجده عندهم.

فيجب أن ننتبه لمحاولة السكاكي لتأسيس نظريته الكبرى ومشروعه الأعظم:(علم الأدب) كما يجب أيضًا إعادة قراءة المفتاح قراءة جديدة تطمح إلى التأصيل والتطوير، تلك القراءة التى ستكون – بإذن الله – مثمرة لإحياء علوم العربية كلها، لا البلاغة وحدها ؛ لأن صيغة السكاكي في مفتاح العلوم استطاعت أن تحكم وتضبط مجمل التراث اللغوي صرفا ونحوا وبلاغة، فهو بحق مفتاحًا للعلوم ، وفي أشد الحاجة لإعادة استثمار وتوظيف، لاتجريح وتشويه.

(١) يُنظَر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: بهاء الدين السبكي:٣/ ١٥٦ ، دار الكتب العلمية، بيروت: ٢٠١٧م.

المطلب الثاني:

الدكتور شوقي ضيف وتقييمه للمنجز البلاغي للإمام السكاكي

يُعد الدكتور شوقي ضيف من أهم الشخصيات المؤثرة بشكل واضح في الدراسات الأدبية والنقدية في العصر الحديث ، ولا نبالغ إذا أطلقنا عليه رائد الدراسات الأدبية والنقدية ؛ فقد ألف سلسلة كتب عن تاريخ الأدب العربي استوعبت تاريخه في مختلف العصور، وتُعد الأهم للباحثين والدارسين في تاريخ الأدب العربي، كما أن له أكثر من أربعين كتابا في الدراسات القرآنية، والأدبية، والنقدية، والبلاغية ، واللغوية[1] ، كما أسهم بشكل واضح في تحقيق التراث العربي.

وقد وُلِدَ أحمد شوقي عبد السلام ضيف عام ١٩١٠م في قرية (أولاد حمام) إحدى قرى محافظة دمياط، وحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة في كُتَّابِ القرية، ثم انتقل مع أسرته إلى مدينة دمياط ليلتحق بالمعهد الأزهري وكان عمره آنذاك تسع سنوات، وواصل فيه تعليمه حتى التحق بتجهيزية (دار العلوم) رغبة في دراسة الأدب والنقد، ثم التحق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة) في عام ١٩٣٢م ، وفى السنة الأخيرة منها عَلِمَ بتأسيس الدكتور طه حسين لقسم اللغة العربية في جامعة فؤاد الأول ، فالتحق به ، وأصبح شوقي ضيف أحد أبرز التلاميذ النجباء للدكتور طه حسين ، وتخرج من الجامعة وكان ترتيبه الأول على دفعته ، ثم عُين معيدًا بقسم اللغة العربية

(١) ألف الدكتور شوقي ضيف أكثر من خمسين مؤلفًا، من أشهرها: موسوعة تاريخ الأدب العربي التي شملت الأدب العربي في مختلف عصوره وأقاليمه، وتقع في عشرة مجلدات.

عام ١٩٣٦م[١]، وحصل على درجة الماجستير في النقد الأدبي، ثم درجة الدكتوراة التي أشرف عليها الدكتور طه حسين، وتدرج في سلك التعليم الجامعي حتى صار أستاذًا، وعمل أيضًا بمجمع اللغة العربية حتى ترأسه، وظل رئيسًا له حتى وفاته في العاشر من شهر فبراير عام ٢٠٠٥م[٢].

وقد كان الدكتور شوقي ضيف أستاذًا ذا أثر بالغ في طلابه النبهاء الذين أصبحوا أعلامًا في الأدب والنقد، فمنهم من حصل على جوائز الدولة التقديرية، ومنهم من حصل على جائزة الملك فيصل للدراسات الأدبية، ومنهم من تولى رئاسة المجامع اللغوية والهيئات الثقافية في عديد من الدول العربية.

وقد انتقد الدكتور شوقي ضيف الإمام السكاكي انتقادًا لاذعًا في كتابه البلاغة تطور وتاريخ ، فقد رماه بضعف اللغة وركاكة الأسلوب وفساد الذوق، ووصف كتابه مفتاح العلوم بالجفاف والجمود ، ووصمه بكثير من المثالب والعيوب ، كطغيان روح الجدل ، وغلبة النزعة الفلسفية والمنطقية عليه ، وإغراقه في التقسيمات المتشعبة والمجادلات والاعتراضات التي لا طائل من ورائها، ولاشك أن صدور هذا النقد من قيمة لغوية ونقدية كبيرة مثل الدكتور شوقي ضيف كان له أثر بالغ وصدى كبير ، فلم يسلم السكاكي من اللوم والنقد على مر السنين دون تثبت أو تحقيق ، وكأنها عدوى أصابت الدارسين.

وقد نفى الدكتور شوقي ضيف عن الإمام السكاكي أي جمال فقال : " وما للجمال والسكاكي إنه بصدد وضع قواعدَ وقوانينَ كقوانين النحو وقواعده ،

(١) معي: د شوقي ضيف ٧/١ دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

(٢) شوقي ضيف أستاذية لا تُنسَى : عبد الستار الحلوجي وآخرون، بحث منشور في مجلة تراثيات الصادرة عن دار الكتب والوثائق القرمية المصرية ، العدد السادس ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م ، ص٢٦.

وهي قواعد وقوانين تُسبَك في قوالبَ منطقية جافّة أشد ما يكون الجفاف، فهو لم يشفع بتحليلات عبدِ القاهر والزمخشريِ التي كانت تملأ نفوسَنا إعجابا ، فقد تحولت البلاغةُ في تلخيصه إلى علم ، بأدق المعاني لكلمة علم ، فهي قوانينُ وقواعدُ تخلو من كل ما يُمتِع النفسَ ، إذ سَلَّطَ عليها المنطقَ بأصوله ومناهجه الحادة ، حتى في لفظها وأسلوبها الذي لا يحوي أيّ جمال"[١].

وقال أيضا :"إن السكاكي قد جمع في بعض أبوابه دررًا وحصىً كثيرًا، أما الدرر فجمعها من كتابات عبد القاهر والزمخشري ، وأما الحصى فجمعه من كتب النحو واللغة... والمفتاح تلخيص أشاع فيه كثيرا من العُسر والالتواء، بسبب ما عَمَد إليه من وضع الحدودِ والأقسام المتشعبة ، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابةً بل دَغْلًا مُلتَفا لا يمكن سُلوكهُ إلا بمصابيحَ من المنطق ومباحثِ المتكلمين والفلاسفة، وهي مصابيح ما تَنِي ترسل إشعاعات تَخْنُقُ خلايا النُضرة في الدغل الكثيف، وكثيرا ما تتراكم هذه الإشعاعات تراكما يحجُب عنا تلك الخلايا الحية التي كنت نتمتع برؤيتها عند عبد القاهر والزمخشري، وإن لم يحجُبها أفسد أنسجتها إفسادا بما أدخل عليها من مواد غريبة"[٢]. وغيرها من النصوص.

هذه النصوص وغيرُها يحوى كلامًا بالغ الخطورة ؛ لأنه صدر من قيمة نقدية مؤثرة في الوسط الأدبي والنقدي ، وليس من اليسير أن يمر هذا الكلام على دارس البلاغة مرورًا هينًا ؛ لأنه يرى مجد البلاغة العريق التليد يضيع بين يديه ؛ فدرسُ البلاغة أغلبه قائمٌ على جهود السكاكي ، ثم يتلقى السكاكي

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق : ٣١٣.

هذه السهام من كل حدب وصوب من الداخل والخارج من الدكتور شوقي ضيف، والدكتور بدوي طبانه، والشيخ عبد المتعال الصعيدى، ومن دُعاة الأسلوبيات الحديثة الذين أعلنوا وفاة البلاغة وقرروا أن اللسانيات الحديثة هى الوريث الشرعي للبلاغة، ومعلوم أن الإرث لا يحدث إلا بعد الوفاة.

من أجل ذلك تتبعت واستقصيت في هذا البحث نقدات الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي ، محاولًا رصدها وتحليلها ومناقشتها مناقشة علمية موضوعية ، ومقارنتها بما هو كائن في منجز السكاكي البلاغي: مفتاح العلوم؛ لأستكشف من خلاله إلى أي مدى كان الدكتورشوقي ضيف مقسطًا في نقده ، ومعتمدًا على منهج علمي قائم على البينات والبراهين ، أم أن حكمه كان مبنيًا على استقراء ناقص لا يصح من خلاله إطلاق الأحكام العامة على السكاكي وكتابه.

المطلب الثالث: التعريف بمفهوم (نقد النقد)

على الرغم من كثرة وتنوع الدراسات التي كُتبَت حول مصطلح نقد النقد إلا أنه لا يزال يكتنفه كثير من الغموض والالتباس حول تعريفه وتحديد ماهيته وأدواته التحليلية وإجراءاته التفسيرية، فلا نكاد نقع على حدود فاصلة ومعالم ثابتة تستوعب هذا المصطلح استيعابًا كاملًا، فعندما نبحث عن نشأته نجد بعض الباحثين يذهب بنا إلى ما قبل الميلاد، حيث أفلاطون وأرسطو، وبعضهم يرى أن " تزفيتان تودوروف" أول من أسس لهذا المصطلح ووضع له الحدود والضوابط ، ومنهم من ذهب إلى أن بذوره التأسيسية العربية الأولى ظهرت في الخطاب النقدي عند ابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء" والملاحظات النقدية التى وردت في كتاب " الوساطة بين المتنبي وخصومه " للقاضي الجرجاني، وكذلك المفاضلات التى ذكرها الآمدي في كتابه: "الموازنة بين أبي تمام والبحتري"، فضلا عن الخلط الكبير الذي يقع فيه كثير من الدارسين بين نقد النقد والنقد الأدبي، غير مدركين للحدود الفاصلة بينهما.

وقد ظهر في السنوات الأخيرة عدد من الدراسات التي توقفت عند هذا المصطلح؛ من أجل تفسيره وإيضاح ماهيته، والكشف عن أدواته التحليلية وإجراءاته التفسيرية، ومن أكثر النقاد الذين أولوا هذا المصطلح عناية خاصة الدكتور جابر عصفور، فقد حدد مفهومه بقوله: " إنه نشاط معرفي ينصرف إلى مراجعة الأقوال النقدية؛ كاشفًا عن سلامة مبادئها النظرية وأدواتها التحليلية وإجراءاتها التفسيرية"[1] وقال في موضع آخر :" إن نقد النقد قول آخر في النقد ، يدور حول مراجعة القول النقدي ذاته وفحصه، وأعني مراجعة

(١) قراءة التراث النقدي: د/جابر عصفور: ٢٢ ، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢م.

مصطلحات النقد وبنيته التفسيرية وأدواته الإجرائية"[١] . فنقد النقد عند الدكتور جابر عصفور إنما هو قراءة على قراءة سابقة، قد تكون موضوعية وقد تكون حادة، والمجال فيها مفتوح لكثير من التفسيرات والتأويلات حسب ثقافة الناقد وخلفياته الفكرية.

وقد حاولت الدكتورة نجوى القسطنطيني التمييز بين نقد النقد والنقد الأدبي وذلك في قولها: " نقد النقد هو خطاب يبحث في مبادئ النقد ولغته الاصطلاحية وآلياته الإجرائية، وأدواته التحليلية، فالنزعة إلى معرفة فلسفة النقد، وآليته، ومقاصده، هي مشغل نقد النقد ومحوره"(٢)، فقد حددت الدكتورة نجوى في النص السابق الفرق بين النقد الأدبي ونقد النقد ، فالنقد الأدبي مجال دراسته هو النص الأدبي، بينما يبحث نقد النقد في النقد الأدبي وأدواته وآلياته؛ فهو خطاب يجعل من النصوص النقدية محل اشتغاله.

ويرى الدكتور شكري عياد أن " نقد النقد، يدور في معظمه حول نوع المعرفة التي يتبعها الناقد، والتي يمكنه الوصول إليها"[٣] فالنقد عنده نوع من المعرفة التى تمكن الناقد من الوصول إليها.

ويوجد تعريفات كثيرة لنقد النقد لا يتسع المقام لذكرها، لكنها مهما تعددت وتباينت، فإنه – لا شك – سيجمعها قدر كبير من التوافق حول وظيفته، فهو في نظر جميع من اهتم به قراءة على قراءة سابقة، وعمل مكمل لعمل الناقد، يراجع ما فيه من آراء، ويصوب ما فيه من خطأ.

---

(١) قراءة في نقاد نجيب محفوظ، ملاحظات أولية: د/ جابر عصفور ، مجلة فصول، م١، ع٣، أبريل، ١٩٨١م، ص١٦٤.

(٢) في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره د.نجوى الرياحي القسطنطيني ، ص٣٥.

(٣) مقدمة في أصول النقد: شكري محمد عياد : ص٤٧، دائرة الإبداع ، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، دبي، الامارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى: ٢٠٠٨،

المبحث الأول

نقد الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي بسبب التعقيد والجمود (عرض، وتحليل، ونقد)

عقد الدكتور شوقي ضيف الفصل الرابع من كتابه: (البلاغة تطور وتاريخ) للحديث عن التعقيد والجمود الذي أصاب البلاغة عبر تاريخها ، وقد استهل هذا الفصل بالحديث عن كتاب :(نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لفخر الدين الرازي، وألحق به مفتاح العلوم للسكاكي، ثم ذكر دراسات جانبية تتسم أيضا بالتعقيد والجمود – كما يرى شوقي ضيف – كالمثل السائر لابن الأثير، والتلخيص للخطيب القزويني، وشروحه العديدة ، ثم اختتم الفصل الرابع بالحديث عن البديع والبديعيات.

ومما ذكر الدكتور شوقي ضيف في نقد مفتاح العلوم بسبب التعقيد والجمود قوله : " تحولت البلاغة في تلخيصه إلى علم ، بأدق المعاني لكلمة علم ، فهي قوانين وقواعد تخلو من كل ما يمتع النفس ، إذ سلط عليها المنطق بأصوله ومناهجه الحادة ، حتى في لفظها وأسلوبها الذي لا يحوي أيّ جمال ، وما للجمال والسكاكي إنه بصدد وضع قواعد وقوانين كقوانين النحو وقواعده ، وهي قواعد وقوانين تسبك في قوالب منطقية جافّة أشد ما يكون الجفاف"[1].

وقال أيضا:" والمفتاح تلخيص أشاع فيه كثيرًا من العسر والالتواء، بسبب ما عمد إليه من وضع الحدود والأقسام المتشعبة ، فإذا المباحث البلاغية تشبه غابة بل دغلا ملتفا لا يمكن سلوكه إلا بمصابيح من المنطق ومباحث المتكلمين والفلاسفة، وهي مصابيح ما تني ترسل إشعاعات تخنق

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٢٨٧

خلايا النضرة في الدغل الكثيف، وكثيرا ما تتراكم هذه الإشعاعات تراكمًا يحجب عنا تلك الخلايا الحية التي كنت نتمتع برؤيتها عند عبد القاهر والزمخشري، وإن لم يحجبها أفسد أنسجتها إفسادًا بما أدخل عليها من مواد غريبة... وحقاً استطاع السكاكي أن يسوّي من نظرات عبد القاهر والزمخشري علمي المعاني والبيان، ولكن بعد أن أخلاهما من تحليلاتهما الممتعة البارعة للنصوص الأدبية، وبعد أن سوى قواعدهما تسوية منطقية عويصة، حتى ليصبح المنطق وأيضاً الفلسفة جزءاً منهما لا يتجزأ، وحتى ليحتاج كتابه في هذا القسم إلى الشرح تلو الشرح ... وكل شارح يضيف من أصباغ المنطق والفلسفة وعلم الكلام ماتمده به ثقافته، وكان ذلك كله إيذاناً بتحجر البلاغة وجمودها جموداً شديداً، إذ ترسبت في قواعد وقوالب جافة، وغدا من العسير أن تعود إليها حيويتها ونضرتها القديمة"[١].

التحليل والنقد:

من خلال النصوص سالفة الذكر التى التقطتها من كتاب: (البلاغة تطور وتاريخ) اتضح لي أن الدكتور شوقي ضيف كان يستنكر على السكاكي نهجه في كتابه مفتاح العلوم ، ف هو يرى أنه قد وَجَّهَ البلاغة وحَوَّلَ مسيرتها إلى أن صارت علمًا ، بأدق المعاني لكلمة علم، وإنني أتسائل: هل كانت محاولة السكاكي لضبط مسائل البلاغة في وقت كاد أن يُقضَى فيه على العلوم الإسلامية والعربية أمر يُذَم ويُعَاب؟! وهل يجوز للدكتور شوقي ضيف أن يهاجم السكاكي وينتقده هذا النقد اللاذع لمجرد أنه رأى تلك الثروة البلاغية الزاخرة المبعثرة التى لا يحويها مصنف ولا يجمعها كتاب مستقل ،

(١) السابق: ٣١٣

فحاول جاهدًا أن يجمع شتاتها، ويضبط مباحثها، ويحيلها علمًا؛ حتى ييسر على طلاب العلم تحصيلها والإفادة منها؟! هل هذا أمر يُنتَقد ويُستَهجَن؟! والحق أنه "شرف للبلاغة أن تكون علمًا من أن تكون بحوثًا مبعثرة لا تلتزم بخطة أو منهج يضبط حركتها ، فلا نتصور أن تُعاب دراسة ما بأنها أخذت ثوبًا علميًا منظما ، بل الأوفق أن تكون العلمية صفة مدح لا ذم ، وهو ما تصبو إليه أي دراسة قديمة أو جديدة... ولم يصنع السكاكي شيئا سوى أنه حول البلاغة إلى علم دقيق ، فهل العشوائية تُمتدَح ، والنظام يُعاب ؟! وهل الاعتباطية في البحث تُعد أصلًا والتنظيم المبرَّر يصير تعقيدًا وجمودًا ؟ إن كل هذه الأحكام تحتاج إلى مراجعة تصحيحية منصفة"[١].

وإذا تصفحنا مفتاح العلوم نجد أن السكاكي قد أفصح عن حال البلاغة في عصره ، وذلك واضح في قوله: " ثم مع ما لهذا العلم من الشرف الظاهر، والفضل الباهر، لا ترى عِلمًا لقي من الضيم ما لقي، ولا مُنِي من سوم الخسف بما مني، أين الذي مهد له قواعد، ورتب له شواهد، وبين له حدودًا يُرجَعُ إليها، وعيَّن له رسومًا يعرج عليها، ووضع له أصولًا وقوانين، وجمع له حُجُجا وبراهين ، وشمَّر لضبط متفرقاته ذيله، واستنهض في استخلاصها من الأيدي رجله وخيله، علم تراه أيادي سبأ، فجزء حوته الدبور، وجزء حوته الصبا... ولكن الله جلت حكمته إذ وفق في تحريك القلم فيه، عسى أن يعطى القوس باريها بحول منه عز سلطانه وقوته، فما الحول والقوة إلا به"[٢].

(١) البلاغة العربية قراءة أخرى : د / محمد عبد المطلب: ٢ الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان– الطبعة الأولى: ١٩٩٧م .

(٢) مفتاح العلوم للسكاكي:٤٢٢.

فقد وَصَّفَ السكاكي في النص السابق حال البلاغة في عصره، وبين مدى حاجتها إلى من يضبط قواعدها، ويرتب شواهدها، ويبين حدودها، ثم ذكر منهجه في كتابه ، وكيف مهد للطلاب والدارسين قواعد علم البلاغة، ويسر لهم ضبطها واستيعاب مسائلها بحكمة واقتدار فقال:" واعلم أني مهدت لك في هذا العلم قواعد متى بنيت عليها أعجب كل شاهد بناؤها، واعترف لك بكمال الحذق في صناعة البلاغة أبناؤها، ونهجت لك مناهج متى سلكتها أخذت بك عن المجهل المتعسف على سواء السبيل، وصرفتك عن الآجن المطروق على النمير الذي هو شفاء الغليل، ونصبت لك أعلاماً متى انتحيتها أعثرتك على ضوال منشودة، وحشدت منها ما ليست عند أحد بمحشودة، ومثلت لك أمثلة متى حذوت عليها أمنت العثار في مظان الزلل وأبت أن تتصرف فيما تثنى إليه عنانك يد الخطل"(١)

فقد بيَّن السكاكي في النص السابق ما أحدثه في البلاغة العربية من ضبط لقواعدها ومعاقدها، وتهذيب لمسائلها، وإحكام لمباحثها وفصولها وأبوابها ، ووضح طريقته في انتقاء الأمثلة والشواهد التي تليق بكل مسألة ووضعها في مكانها الأليق بها ، وهذا أمر واضح في كتاب مفتاح العلوم لا يجادل فيه أحد. ولا شك أن هذه هي البلاغة التعليمية في أدق معانيها وأبهى صورها ، فالإمام السكاكي بعقله الفذ وقريحته المتوقدة كان صاحب مشروع تقدمي سابق لعصره؛ إلا أنه لم يُقرَأ حتى الآن – بما يتناسب مع منهجه الشامل، وهدفه التعليمي الذي أراده السكاكي– الأمر الذي يُوجِب على المعنيين بالدراسات النقدية والبلاغية إعادة قراءة المفتاح قراءة جديدة واعية بمنظور متجدد يتوافق مع معطيات العلم في العصر الحديث.

(١) المصدر السابق: ٣٠٠

ولا شك أن السكاكي وهو في طريقه نحو ضبط البلاغة وتبويبها وتقسيمها، كان لابد أن يتأثر بروح المنطق والفلسفة المسيطرين على عصره، كما أننا لا ننتظر منه عرضًا فنيًا رائقًا كالذي ألفناه عند إمام البلاغين عبد القاهر الجرجاني، لأن السكاكي كان معنيًا بتقرير قواعد البلاغة وضبط مسائلها، فاللعلم مراحل ، وللعلماء أدوار، وما قدمه لنا السكاكي في عصره فاق فيه وتفوق على كثير من أقرانه ومعاصريه ، فقد استطاع بعبقريته الفذة وبصيرته المتوقدة أن يضع لنا أسس علم البلاغة، ويثبت دعائمه وأركانه، ويضع حدوده ورسومه ويفصل أبوابه وأقسامه. فضلًا عن أنه كان يعيش في عصر ازدهار الفلسفة والمنطق، عصر الإمام الرازي، وحازم القرطاجاني، وقطب الدين الشيرازي، بينما الإمام عبد القاهر الجرجاني كان يحيا في عصر ازدهار الأدب والنقد، فمن الجور والضيم أن نُطَالِب السكاكي بأن يكتب بطريقة تخالف طريقة عصره، ومن الاضطهاد والتعسف أن نوازن بين أسلوب الرجلين؛ لاختلاف الزمان والمنهج وحاجات الدارسين، فالفرق بينها واضح ولا يحتاج هذا الامر لكل هذا النقد والاستنكار.

كما أن السكاكي لم يكن أول الداعين لتقنين البلاغة وضبط مسائلها، بل سبقه في هذا السبيل أعلام كبار: أقربهم إليه زمنًا: فخر الدين الرازي الذي حاول في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" تلخيص كتابي الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وسبقه بنحو قرنين من الزمان: قدامة بن جعفر في كتابه: نقد الشعر، وإسحاق بن وهب في كتابه: البرهان في وجوه البيان، وأبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين، ثم جاء السكاكي ليتوَّج هذه المرحلة بكتابه: مفتاح العلوم.

كما أننا لا يمكن أن نتغافل عن أن تأليف السكاكي لكتابه مفتاح العلوم على هذا النحو كان تلبية لحاجة أبناء عصره، وقد أبان عن ذلك في مقدمة

كتابه، حيث قال: " ولما رأيت أذكياء أهل زماني الفاضلين، الكاملي الفضل، قد طال إلحاحهم عليّ في أن أصنف لهم مختصرًا يحظيهم بأوفر حظ منه ، وأن يكون أسلوبه أقرب أسلوب من فهم كل ذكي، صنفت هذا وضمنت لمن أتقنه أن ينفتح عليه جميع المطالب العلمية، وسميته: مفتاح العلوم وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام: القسم الأول في علم الصرف، القسم الثاني في علم النحو، القسم الثالث في علمي المعاني والبيان"(١).

فليس من العدل أن يُحَاكَم السكاكي بمقاييس عصرنا الحالي وهو ابن القرن السادس الهجري ، كما أنه ليس من الإنصاف أن نطالبه بأن يضع لنا البلاغة التى تتناسب مع عصرنا، وأن يُصَنِّفَ لنا النظريات النقدية التى تتوافق مع طريقة إبداعنا، لا شك أن هذا فيه من التعسف والجور ما لا يخفى على أحد ؛ لأن الأصل أن يَكتُب العَالِم في كل عصر من العصور بما يناسب زمانه وما يتطلبه حال طلابه، ثم يأتى العلماء في العصور اللاحقة ليكملوا هذا البناء، ويضع كل منهم لبنة جديدة في صرح هذا العلم تلبى حاجة واقعهم المتجدد، وتكون ص ورة لهم.

ومن الأمور اللافتة للنظر والجديرة بالذكر في هذا المقام أنه منذ أن أَلَّفَ السكاكي كتابه مفتاح العلوم حتى العصر الحديث لم نسمع عن أحدٍ من الدارسين اتهمه بالتعقيد والجمود، بل كان الأمر على خلاف ذلك، فقد وجدناه نال الرضا والقبول حتى صار قبلة للدراسين في المشرق والمغرب، فعكفوا على قرائته وإقرائه، وتلخيصه وتوضيحه، فقد أثنى الخطيب القزويني عليه بقوله: "وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم، الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي، أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعًا، لكونه أحسنها

(١) السابق نفسه : ٧

ترتيبًا، وأتمها تحريرًا، وأكثرها للأصول جمعًا"[١]، كما مجده ابن خلدون في مقدمته الشهيرة عندما تعرض للحديث عن تاريخ علم البلاغة، حيث قال:" ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئًا فشيئًا إلى أن محّض السّكاكي زبدته، وهذّب مسائله، ورتّب أبوابه، وألّف كتابه المسمى بمفتاح العلوم في النّحو والتّصريف والبيان"[٢].

وظل الأمر على هذا الحال حتى أواخر القرن التاسع عشر، فمع ظهور دعوة الإمام محمد عبده لتطوير التعليم الأزهري عن طريق إحياء التراث العربي الأصيل، وتحرير الفكر العربي من قيود التقليد، ومدارسة الشروح والتلخيصات والتقريرات ، بدأ الهجوم على السكاكي وبلاغته ؛ لأن الإمام محمد عبده كان يرى أن بلاغة السكاكي ومن لفَّ لفه، واقتفى أثره من أصحاب الشروح والحواشي والتقريرات بلاغة جافة جامدة مهلكة للروح الفنية ، ومفسدة للذوق الأدبي ، لا ترهف الحس، ولا تصقل الملكة النقدية ، ولا تعين على التذوق والتحليل والموازنة بين أنواع الكلام، ولا تعين الدارسين على الكشف عن خصائص الإعجاز القرآني، وقد توارثت الأجيال هذه النظرة المذعنة جيلًا بعد جيل، وتلقاها أكثر البلاغيين بالرضا والقبول بالرغم من هيمنة مدرسة السكاكي على الدرس البلاغي حتى يومنا هذا.

وقد فعلت تلك الاستهانة بالسكاكي ومفتاحه فعلها المسترسل المشتط عامًا بعد عامٍ، وجيلا بعد جيل ، وكان لها صدى كبير وأثر بالغ ، وظل هذا

(١) التلخيص في علوم البلاغة : جلال الدين القزويني الخطيب:٢١ ، ضبطه وشرحه : عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ، ط/ ١، ١٩٠٤م.

(٢) مقدمة ابن خلدون: ١/ ٥٥٢ ت: عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

الاتهام سائدًا مسيطرًا ، ولم يسلم السكاكي من النقد واللوم عبر العصور دون تثبت أو تحقيق، حتى من الأساتذة الكبار المنتسبين لجامعة الازهر مثل الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، فقد ذكر في مقدمة تحقيقه للإيضاح : " إن السكاكي قد أمعن في الغوص بقواعد البلاغة إلى أعمق بحار العلوم العقلية من منطق وفلسفة ، وجرى في ذلك إلى غاية بعيدة المدى ، مترامية الأطراف ، كانت أولى الخطوات الواسعة بعد قدامة بن جعفر في النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الذي ترى عليه البلاغة الآن"(١).

ولا يقع في وهم أحد أنني أقف في هذا البحث موقف المدافع عن السكاكي دون مراجعة وتدقيق ، بل إنني على علم تام بأن جنوح السكاكي لضبط أبواب البلاغة وتقسيمها أحاله في بعض الأوقات إلى كثرة التقسيمات والتفريعات قليلة الجدوى، وقد استنكر عليه هذا الأمر كثيرُ من البلاغيين حتى ممن اتبع مدرسة السكاكي والقزويني، وسار على نهجهما، ومن هؤلاء العلامة السعد التفتازاني، قال معلقًا على كثرة التقسيمات التي وردت في باب التشبيه: "واعلم أن أمثال هذه التقسيمات التي لا تتفرغ على أقسامها أحكام متفاوتة قليلة الجدوى، وكأن هذا ابتهاج من السكاكي باطلاعه على اصطلاحات المتكلمين، فلله در الإمام عبد القاهر فإنه لم يزد في هذا المقام على التكثير من أمثلة أنواع التشبيهات وتحقيق اللطائف المودعة فيها"(٢)" وعلق العصام صاحب الأطول بعد أنْ تكلَّم عن الحواس والكيفيات والحركات: "واعلم أنَّه لَم يفِ المصنِّف بما وعَد في ديباجة الكتاب ؛ من حذف الحشو، والتطويل والتعقيد،

(١) ينظر: مقدمة تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي لكتاب الإيضاح للخطيب القزويني:١٩٢/٦– دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٣م.

(٢) المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: سعد الدين التفتازاني: ٥٢٩ ت: د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة:٢٠١٥م.

وسَهَا عنه في هذا المقام؛ لأنَّ هذه التقسيمات ممَّا لا نفْع له في هذا الفن، بل يوجِب تحيُّر الأفهام، وإيقاع المبتدئين في الظلام"[١].

ولا أرفض في هذا المقام تبويب مباحث البلاغة وضبط قواعدها، بل إنه أمر مهم وضروري ليس في البلاغة وحدها، بل في كل العلوم والفنون؛ لأنه لا يُوجد كتاب يلقى قبولًا وإعجابًا من القراء إلا وتجد صاحبه قد عُنِيَ بتهذيبه وضبط أقسامه وترتيبها وإحداث التناغم والانسجام بينها، وكان حريصًا كل الحرص على حشد كل الوسائل التى تثري الكتاب، وتعلي من قيمته؛ حتى ينال إعجاب القراء واستحسانهم . لكن الأمر المرفوض هو الإفراط في التقسيم، والإسهاب في التبويب بدون طائل ، الأمر الذي يؤدي إلى تداخل الأقسام ، واضطراب المصطلحات ، وتزاحم التفريعات ، من أجل ذلك يجب تقليل التقسيمات قليلة الجدوى ، عديمة النفع ، التي يشق على الدارسين فهمها واستيعابها ؛ لأنها لا جدوى من ذكرها ، بل تُوقِع المتعلمين في الحيرة والاضطراب .

ومن الأمور المهمة التى كان لها أثر كبير في إذكاء فكرة التعقيد والجمود التى لحقت بالسكاكي ومفتاحه تلك النظرة الجزئية التى لم تستوعب مشروعه الأكبر لعلم الأدب ، واقتصرتْ على دراسة الجزء الثالث فقط، والوقوف عند أبوابه ومباحثه وقضاياه، دون الولوج إلى المشروع كاملًا، مع أن السكاكي نفسه قد نصَّ في مقدمة كتابه على أنه قد ألفه من جهات متعددة وذلك في قوله : "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب ، دون نوع اللغة ، ما رأيته لا بد منه ، وهي عدة أنواع متآخذة . فأودعته علم الصرف بتمامه ،

(١) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم:عصام الدين الحنفي: ١٥٤ ت: د عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت

وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع على أنواعه الثلاثة وقد كشفت عنها القناع، وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان".[١]

فالسكاكي أراد أن يجمع في مفتاحه علوم الخطاب: (الصرف والنحو والبلاغة) من أجل تأسيس مشروعه الأكبر (علم الأدب) ، لكن الدكتور شوقي ضيف نظر إليه نظرة جزئية، وتعامل معه على أنه كتاب في البلاغة خاصة دون غيرها من العلوم ، وأبعده عن المشروع الذي أراده السكاكي ، ثم راح يوجه له سهام النقد المتتابعة : بأنه أفسد البلاغة وعقَّدها وجمدها، وأبعدها عن وظيفتها الأساسية من إرهاف الملكات الفنية، وإمداد الدارسين بما يعينهم على التذوق الأدبي، والموازنة بين أنماط الكلام وتمييز جيده من رديئه، ولا شك أن في هذا تعجل في الحكم على كتاب مفتاح العلوم، وإطلاق للأحكام عليه دون تدبر لمنهجه وتصفح لكل صفحاته.

لكن وَجَبَ علىَّ في هذا المقام – وقبل أن أنتقل إلى جانب آخر من جوانب نقد الدكتور شوقي ضيف للسكاكي– أن أشير إلى أن الدكتور شوقي ضيف لم يكن منتقدًا للسكاكي على الدوام ، بل قد نجده – نادرًا– يمتدح السكاكي ويثنى عليه في بعض المواقف التى يجب الثناء عليه فيها، ولعل أوضح بيان لذلك حينما أراد أن يقرر بوضوح تفوق السكاكي في مفتاح العلوم على كل الملخصات التى سلكت هذا النهج في التأليف ، وذلك في قوله : " ومن الحق أن تلخيصه أدق من تلخيص الفخر الرّازي، وكأنّما كان عقله أكثر دقة وضبطا للمسائل، بل لقد كان أكثر تنظيما وأسدّ تقسيمًا، مع ترتيب المقدمات، وإحكام المقاييس وصحة البراهين، وبذلك استقام تلخيصه بحيث

(١) مفتاح العلوم :٧

قلما تجد فيه اعوجاجا أو أمتا"[1]. وهذا إنصاف من الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي، وكلمة حق باح بها في خِضَم هذا النقد الشديد المتتابع، فقد أقر واعترف في هذا النص القصير بقيمة الكتاب التى تجلت عنده في لم شعث البلاغة، وجمع ما تشتت من مسائلها وأبحاثها، وضبط مسائلها بدقة وإحكام، ، فأصبحت تضاهى العلوم اللغوية الأخرى كالنحو والصرف.

(١) البلاغة تطور وتاريخ: د/ شوقي ضيف ص:٢٨٦..

المبحث الثاني

نقد الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي بسبب فساد الذوق

عرض وتحليل ونقد

ذكر الدكتور شوقي ضيف في أكثر من موضع من كتابه: (البلاغة تطور وتاريخ) أن السكاكي كان أبعد ما يكون عن الذوق الفني؛ لأنه كان بصدد وضع قواعد لبلاغة جامدة متحجرة لا روح فيها ولا رواء، وبعيدة كل البعد عن الروح الأدبية الحيوية النضرة.

وقد انتقد الدكتور شوقى ضيف مرحلة السكاكي بأكملها، وأطلق عليها مرجلة التعقيد والجمود، ولا شك أن السكاكي كان رائد هذه المرحلة ومؤسسها، ومما كتب الدكتور شوقي ضيف في نقد هذه المرحلة قوله: " وبذلك تحجرت قواعد البلاغة وتجمدت، وبدا كأنه أصبح من المتعذر أن تعود إلى سيولتها القديمة التى كانت تعدها لأن تنمو وأن تزداد وأن تتكاثر أثداؤها الغاذية. وسرعان ما شاع فيها العقم ، وعجَّل به استقلال مباحثها عن الأدب ، فإذا هي تصبح مجموعة من القواعد الجافة كقواعد النحو والصرف، فالأساتذة يدرسونها لتلاميذهم ، وقد يؤلفون فيها دون عناية بالنصوص إلا ما يجلبونه من لدن عبد القاهر والزمخشري. ولا تظن أنهم يحتفظون بتحليلاتهما البديعة لنصوص الشعر والنثر وآي الذكر الحكيم، فقد كان ينقصهم الذوق المرهف والحس الحاد، كما كانت تنقصهم الملكة البصيرة التى تستطيع تحليل النماذج الأدبية وتبيُّن مواطن الجمال الخفية فيها ، بل أيضًا المواطن الظاهرة"[١]

وقال عن السكاكي: "حقاً استطاع السكاكي أن يسوّي من نظرات عبد القاهر والزمخشري علمي المعاني والبيان، ولكن بعد أن أخلاهما من

(١) البلاغة تطور وتاريخ، د. شوقي ضيف ، ص: ٢٧٢.

تحليلاتهما الممتعة البارعة للنصوص الأدبية، وبعد أن سوى قواعدهما تسوية منطقية عويصة، حتى ليصبح المنطق وأيضاً الفلسفة جزءاً منهما لا يتجزأ"[١]

ومما ذكر الدكتور شوقي ضيف أيضًا في نقد السكاكي بسبب فساد التذوق قوله : "فالبلاغة عنده أصبحت قوانين وقواعد تخلو من كل ما يمتع النفس ، إذ سلط عليها المنطق بأصوله ومناهجه الحادة ، حتى في لفظها وأسلوبها الذي لا يحوي أيّ جمال ، وما للجمال والسكاكي إنه بصدد وضع قواعد وقوانين كقوانين النحو وقواعده ، وهي قواعد وقوانين تسبك في قوالب منطقية جافّة أشد ما يكون الجفاف"[٢].

التحليل والنقد:

ظهر جليًا من خلال النصوص السابقة موقف الدكتور شوقي ضيف من السكاكي، فهو يرى أن نزعة السكاكي العقلية واهتمامه الشديد بالجانب المعياري وبالقواعد والتقسيمات قد أثر تأثيرًا شديدًا على تذوقه وحسه الفني.

وإذا تتبعنا ذلك في مفتاح العلوم من أجل الحكم عليه وجدنا أن السكاكي في مستهل حديثه عن علم المعاني جعل الذوق هو ملاك الأمر في علم البلاغة، وذلك واضح في قوله: " ثم إذا كنت ممن ملك الذوق على الطبع وتصفحت كلام رب العزة أطلعتك على ما يوردك هناك موارد الهزة ، وكشفت لنور بصيرتك عن وجه إعجازه القناع، وفصلت لك ما أجمله إيثار أولئك المصاقع على معارضته القراع ، فإن ملاك الأمر في علم المعاني هو الذوق

(١) المصدر السابق: ٣١٣

(٢) السابق نفسه : ٢٨٧

السليم والطبع المستقيم ، فمن لم يرزقهما فعليه بعلوم أخر، وإلا لم يحظ بطائل مما تقدم وما تأخر:

إذا لم تكن للمرء عين صحيحة ... فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر"[١]

فالسكاكي كاد أن يقرر أن الحكم الفصل في علم البلاغة والمرجع الأساسي في تقييم النصوص هو الذوق الفني المثقف؛ لأنه روح البلاغة الذي يسرى في ثناياها، كما ذكر أيضًا في ثنايا حديثه عن الإسناد الخبري قوله : " هذا الفن فن لا تلين عريكته ، ولا تنقاد قرونته بمجرد استقراء صور منه، وتتبع مظان أخوات لها ، وإتعاب النفس بتكرارها ، واستيداع الخاطر حفظها وتحصيلها ، بل لا بد من ممارسات لها كثيرة ، ومراجعات فيها طويلة ، مع فضل إلهي من سلامة فطرة، واستقامة طبيعة ، وشدة ذكاء ، وصفاء قريحة ، وعقل وافر"[٢]. فقد أشار السكاكي في النص السابق إلى أن تحصيل الذوق وتهذيبه ليس بالأمر اليسير الهين، بل يحتاج إلى مطالعات كثيرة، وممارسات دائمة دؤوبة للفصيح الجيد من كلام العرب.

وقد أكد السكاكي في مفتاحه على أهمية الذوق في أكثر من موضع منها قوله: "واعلم أن مستودعات فصول هذا الفن لا تتضح إلا باستبراء زناد خاطر وقَّاد، ولا تنكشف أسرار جواهرها إلا لبصيرة ذي طبع نقاد، ولا تضع أزمتها إلا في يد راكض في حلبتها على أنأى مدى باستفراغ طوق متفوق أفاويق استثباتها بقوة فهم ومعونة ذوق مولع من لطائف البلاغة بما يؤثرها القلوب بصفايا حباتها، وتنثر عليها أفئدة مصاقع الخطباء خبايا محباتها، متوسل بذلك أن يتألق في وجه الإعجاز في التنزيل، متنقلا مما أجمله عجز

(١) مفتاح العلوم: ١٣٨

(٢) المصدر السابق: ٧٦.

المتحدين به عندك إلى التفصيل، طامع من رب العزة والكبرياء في المثوبة الحسنى، والفوز عنده يوم النشور بالذخر الأسنى"[1] فقد أكد السكاكي في النص السابق على أهمية الذوق الفني المثقف لدارس البلاغة حتى كاد يجعله هو المَعِيْنَ الأصيل في الكشف عن مظاهر جمال النصوص والحكم عليها، فمتى استصحب البلاغي الذوقَ وما تبعه من تعطف الشعور وإشفاق الوجدان اللذين يقع على عاتقيمهما الإدراك والاستيعاب والتأثر ، استطاع أن يفطن لما في النصوص المتنوعة من مظاهر الجمال الخفية والنكات البلاغية المطوية.

كما تحدث السكاكي قبل الشروع في مسائل علم المعاني عن دور الذوق وأهميته في إنشاء العمل الأدبى وجعلِهِ بليغًا مؤثرًا من ناحية ، وفى تقويمه والحكم عليه من ناحية أخرى فقال :" أن ليس من الواجب في صناعة وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها على مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها فكيف إذا كانت الصناعة مستندة على تحكمات وضعية واعتبارات إلفية فلا على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلد صاحبها في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك على أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق وكان شيخنا الحاتمي ذلك الإمام الذي لن تسمح بمثله الأدوار ما دار الفلك الدوار تغمده الله برضوانه يحيلنا بحسن كثير من مستحسنات الكلام إذا راجعناه فيها على الذوق ونحن حينئذ ممن نبغ في عدة شعب من علم الأدب وصبغ بها يده وعانى فيها وكده وكده وها هو الإمام عبد القاهر قدس الله روحه في دلائل الإعجاز كم يعيد هذا".[2]

(١) السابق نفسه : ٢٤٨

(٢) مفتاح العلوم: ١٦٩ و ١٧٠

فالسكاكي في النص السابق يلفت أنظارنا إلى أحد مقاييس النقد الأدبى في الصورة التعبيرية ، وهو مقياس الطبع والصنعة ، أو ما سماه (الناشئ) و(الدخيل) فلا يعقل – في صناعة المعنى – أن يكون الدخيل فيه كالناشئ عليه من جهة استفادة الذوق ، فالذوق – في نظر السكاكى – هو المرجع في استحسان الكلام ، إذ يستطيع به الناقد أن يتفطن لخواص التراكيب الأدبية ، وإدراك مناحى الحسن والجمال فيها. كما ظهر من خلال النص السابق أن السكاكى كان من الذين يؤمنون بدور الذوق في إنشاء العمل الأدبى وجعلِه بليغًا مؤثرًا من ناحية ، وفى تقويمه والحكم عليه من ناحية أخرى ، وهو في هذا يسير على نهج أعلام النقاد والبلاغيين؛ ولهذا نراه يقول عقب ما ارتآه : "وكان شيخنا الحاتمي يحيلنا إلى مستحسنات الكلام إذا راجعناه فيها على الذوق" وهذه العبارة تلفتنا إلى أهمية ملكة التذوق في استبطان النصوص وفهم مراميها ، كما أنها تبرز احتفاء العلماء بتلك الملكة عند أهل صناعة اللسان.

ثم يرشدنا السكاكي إلى الصفات التى يجب توافرها في الناقد الذي يريد الحكم على النصوص الأدبية وتقويمها، واستشفاف ما فيها من جمال، فيقول:"واعلم أن لطائف الاعتبارات المرفوعة لك في هذا الفن من تلك المطامح النازحة من مقامك لا تثبتها حق إثباتها ما لم تمتر بصيرتك في الاستشراف لما هنالك أطياء المجهود، ولم تختلف في السعي للتنقير عنها وراءك كل حد معهود، ماذا بضبعك صدق همة تبطش في متوخاك بباع بسيط أن لا تزل عن مرمى غرضك ولو مقدار بسيط مستظهرا في طماعيتك أن تستشعرها بنفس لك يقظى، وطبع لطيف، مع فهم متسارع، وخاطر معوان، وعقل دراك، وعلماء هذه الطبقة الناظرة بأنوار البصائر المخصوصون بالعناية الإلهية المدللون بما أوتوا من الحكمة وفصل الخطاب، على أن كلام رب العزة، وهو قرآنه الكريم، وفرقانه العظيم، لم يكتس تلك الطلاوة ولا استودع تلك

الحلاوة، وما أغدقت أسافله، ولا أثمرت أعاليه، وما كان بحيث يعلو ولا يُعلَى إلا لانصبابه في تلك القواليب ولوروده على تلك الأساليب".[1] فقد أشار السكاكي في النص السابق إلى صفات سبع يجب توافرها في الناقد الذي يحاول استبطان النصوص الأدبية وفتح مغاليقها ، وتقويمها ، واستشفاف ما فيها من جمال.وهى:-

١- صدق الهمة

٢-اتساع الباع

٣- يقظة النفس

٤- صفاء الطبع

٥- سرعة الفهم

٦-معونة الخاطر

٧-عقل مدرك

ويبدو تأثر السكاكي في النص السابق بمن سبقة من أرباب الذوق المدرب المثقف ، خاصة ابن طباطبا العلوي حينما جعل الذوق أحد معايير الشعر التي حده بها ، فمعيار الذوق عنده هو العقل الصحيح ، والفهم الثاقب، والعقل عنده كالحاسة تتقبل ما يتصل بها، والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ، والجائز المعروف المألوف، ويتشوف إليه ، ويتجلى له ، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر ، وينفر منه ، ويصدأ له[2].

(١) مفتاح العلوم : ٢٠٤- ٢٠٥

(٢) ينظر: عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي: ٢٠ ، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

ولم يكن السكاكى من الذين يطلقون الأقوال والأحكام دون دليل، بل نراه يعتمد على ذوقه في إدراك الاعتبارات الدقيقة لنصوص القرآن الكريم، حيث يقف مع قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة هود : ٤٤) فيقول:"وإذ قد وقفت على البلاغة وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية فأنا أذكر على سبيل الأنموذج آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحة ما عسى يسترها عنك، ثم إن ساعدك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تحدوا بها"[١] فالسكاكي يدعو كل صاحب فكر وذوق لإجالة خاطره في الآية الكريمة لافتًا إلى أن التذوق أمر نسبي، يختلف من شخص لآخر، كلٌ حسب ثقافته وصفاء طبعه، واستشعاره لجمال النص وإحساسه به.

كما نادى السكاكي مرارًا وتكرارًا بضرورة تأمل النصوص الأدبية المتنوعة ، والوقوف أمامها لتميز جيدها من رديئها، وليس أدل على ذلك من وقوفه أمام قول الشاعر:-

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

يقول السكاكي :"انظر إليه كيف تجد الفهم والذوق يقتضيانك كمال ارتفاع شأن حاجب الأول وكمال انحطاط حاجب الثاني"[٢]

فكأنه يلمح إلى أن ملكة التذوق والفهم الثاقب للبيت هي التى كشفت جماليات كلمة (حاجب)، فعلى الرغم من اتحاد الكلمة في الموضعين من البيت إلا أن معناها في صدره غير معناها في عجزه، فالفهم والذوق هما الموحيان لاستحسان الكلمة في صدر البيت، وهما – أيضا – القاضيان

(١) مفتاح العلوم : ٤١٧

(٢) السابق:١٩٣

باستقباحها في عجزه، فكأن الذوق صورة من صور تفاعل النص مع النفس الإنسانية فكرًا وشعورًا وعاطفةً وحسًا.

ويظهر تأثر السكاكي بالإمام عبد القاهر الجرجاني في نقده السابق حينما قال : " إنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر" ويضرب لنا مثالًا على ذلك بلفظ (الأخدع) في بيت الحماسة:

تَلَفَّتُّ نحوَ الحَيِّ حتى وَجَدْتُني ... وَجِعْتُ مِنَ الإصْغاءِ لِيتاً وأَخْدَعا

وبيت البحتري:

وإنِّي وإنْ بلَّغْتَني شرَفَ الغِنى ... وأَعتقْتَ مِنْ رِقِّ المَطامع أَخْدَعي.

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دَهرُ قَوِّم مِن أَخدَعَيكَ فَقَد ... أَضْجَجْتَ هذا الأَنامَ مِنْ خُرُقِكْ

فتجد لها من الثّقل على النفس، ومن التنغيص والتكدير، أضعاف ما وجدت هناك من الرّوح والخفّة، ومن الإيناس والبهجة.(١)

كما أشار السكاكي إلى ما يحدثه التأمل في النصوص وتذوق معطياتها من تولد الشعور بالهزة والطرب للمستحْسَن من الكلام، وهذه الحالة لن يصل إليها إلا العلماء النحارير والحذّاق المهرة الذين يتولد عندهم هذا الانفعال الجمالى، وفى هذا يقول:"وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان قلما تتضح إلا لأفراد بلغائهم أو للحذاق المهرة في هذا الفن والعلماء النحارير، ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: الإمام عبد القاهر الجرجاني:٤٠ ت: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي – مطبعة المدني:١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.:

زيادة هزة ونشاط، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل إن كان ممن يسمع ويعقل وقليل ما هم أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، ولأمر ما وقع التباين الخارج عن الحد بين مفسر لكلام رب العزة ومفسر وبين غواص في بحر فرائده وغواص"[١]

وإذا كان السكاكي قد نبه إلى ما يحدث للمتذوق من أريحية وهزة نفسية فإن الإمام عبد القاهر قد نظر إلى بواعث تلك الأريحية ومقتضياتها فقال: " فإذا رأيتك قد ارتحت واهتززت واستحسنت فانظر إلى حركات الأريحية مم كانت؟ وعن ماذا ظهرت"[٢] وهذا يؤصل ما ذكرته من اهتمام السكاكى بجانب الذوق.

ولم يتوقف تقدير السكاكي للذوق عند هذا الحد، بل جعله الطريق الأوحد لإدراك إعجاز القرآن الكريم ، وقال قولته الطنانة التي أثارت جدلا كبيرًا : " واعلم أن شأن الإعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن، تُدرَك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، ومُدرِكُ الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا ، وطريقة اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين المعاني والبيان ، نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك، أما نفس وجه الإعجاز فلا "[٣] فالسكاكي في هذا النص يعلي من قيمة الذوق حتى جعله الطريق الأوحد لإدراك إعجاز القرآن الكريم، وجعل اكتسابه يتأتى من طول خدمة علمي المعاني والبيان ، فمع تواصل القراءة والاطلاع والغوص في مسائل علمي المعاني والبيان تتأتى ملكة الذوق شيئا فشيئا، وتنمو وتتطور

(١) مفتاح العلوم : ٢٠٠- ٢٠١

(٢) دلائل الإعجاز: ٨٥

(٣) ينظر: مفتاح العلوم : ١٨١.

حتى يتمكن صاحبها من التفطن لما في القرآن الكريم من وجوه الإعجاز ومزايا النظم وروعة التراكيب.

أما ما يخص نقد الدكتور شوقي ضيف للسكاكي بأنه لا يعتني بالنصوص إلا ما يجلبه من الإمام عبد القاهر والعلامة الزمخشري ، ولا توجد لديه تحليلات بديعة لنصوص الشعر والنثر وآي الذكر الحكيم؛ لأنه ينقصه الملكة البصيرة التى تستطيع تحليل النماذج الأدبية وتبيُّن مواطن الجمال الخفية فيها، عند مراجعة كتاب مفتاح العلوم للتحقق من هذا النقد وجدت أن السكاكي بالفعل قد استصحب جملة من شواهد الإمام عبد القاهر الجرجاني والعلامة الزمخشري ، لكن هذا في رأيي لا يعيبه ، لأنه لم يعتمد على هذه الشواهد اعتمادًا كليًا، ولم يتوقف عند استصحابها دون تدخل منه لبيان مواطن الجمال المكنونة فيها والتى لم يتعرض لها الإمام عبد القاهر والعلامة الزمخشرى ، وإن شئت أن تتثبت مما أقول فراجع تحليلات الإمام السكاكي للشواهد الآتية، وقارن بينها وبين ما ذكره شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر والعلامة الزمخشري:

١-قول الله تعالى :﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة هود : ٤٤)[1].

٢-قول زياد الأعجم:

إنَّ السَّماحَةَ وَالمُروءَةَ وَالنَّدى * في قُبَّةٍ ضُرِبَت عَلى ابنِ الحَشرَجِ

٣-وقول أبي نواس:

فما جازَهُ جُودُ ، ولا حَلّ دونَه * ولكنْ يصيرُ الجودُ حيثُ يصيرُ

(١) ينظر: المفتاح ٤١٩: ٤٢١ ، ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني: ٤٥ ، ٤٦ ت: محمود محمد شاكر أبو فهر ، مكتبة الخانجي – مطبعة المدني : ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٤–وقول الشنفرى :

يبيتُ بمنجاةٍ من اللوم بيتها * إذا ما بيوتٌ بالمالمةِ حُلّتِ[١]

٥–قول امرئ القيس:

تَطــاوَلَ لَيلُــكَ بِالأَثمَــدِ ** وَنــامَ الخَلِــيُّ وَلَــم تَرقُــدِ

وَبــاتَ وَباتَــت لَــهُ لَيلَــةٌ كَلَيلَــةِ ذي العــائِرِ الأَرمَــدِ

وَذَلِــكَ مِــن نَبَــإٍ جــاءَني وَخُبِّرتُــهُ عَــن أَبــي الأَســوَدِ[٢]

وبعد أن تُراجِعْ ما ذكر الإمام السكاكي في تحليله للشواهد سالفة الذكر، وتطلع على براعته في الاستنباط والتحليل والإضافة ، ستتأكد من أن الإمام السكاكي كان امتدادًا معرفيًا للبلاغة العربية في عصرها الذهبي ، وتستوثق من أن السكاكي لم يقم بوضع بلاغة جديدة أحدثت قطيعة معرفية وحضارية ، بل ما زالت البلاغة عنده مرتبطة بإعجاز القرآن العزيز والبيان العربي العالي ، وكل ما فعله السكاكي في مفتاحه هو أنه قام بتحديث البناء المعرفي للبلاغة العربية ، والتحديث لا يعني الانقطاع ، بل يعنى الاتصال والتطوير: الاتصال بما أنتجته القرائح العظيمة الفذة في عصر البلاغة الذهبي، والتطوير الذي أراد منه السكاكي التأسيس لما سماه علم الأدب ، وذلك باستيعاب العلوم المتآخذة: (الصرف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع، والقوافي والأوزان ، وعلم الاستدلال) .

ولم يتوقف السكاكي عند استصحاب الشواهد البلاغية التى ذكرها الإمام عبد القاهر والشيخ الزمخشري فحسب ، بل أضاف إليها شواهد جديدة متنوعة

(١) يراجع : دلائل الإعجاز : ٣٠٧: ٣١٠ ومفتاح العلوم : ٤٠٧ : ٤٠٨

(٢) يراجع : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله : ١٤/١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ، والكشاف: ٢٠٣.

من الكتاب العزيز وبيان النبوة العالي وعيون الشعرالعربي ، أثرى بها أبواب البلاغة ، وتناولها بالتحليل الجيد الماتع الذي اعتمد فيه على ذوقه المرهف وحسه النقدي الفَطِن ، وإن أردت دليلًا على ذلك فتصفح مفتاح العلوم وتأمل شواهده تعثر على عشرات الشواهد التى حللها السكاكي بذوقه الفني المثقف ولم يتاثر فيها بأحد ممن سبقه ، ومن هذه المواضع إدراكه لسر بديع من أسرار تقديم كلمة (رجل) على الجار والمجرور في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ (سورة القصص : ٢٠) وتأخيرها عن الجار والمجرور في قوله: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (سورة يس: ٢٠) وقد ذكر السكاكي في بيان السر البلاغي للتقديم والتأخير قوله : " ولله در أمر التنزيل ، وإحاطته على لطائف الاعتبارات في إيراد المعنى على أنحاء مختلفة بحسب مقتضيات الأحوال، ولا ترى منها شيئاً يراعى في كلام البلغاء من وجه لطيف إلا عثرت عليه مراعي فيه من ألطف وجوه ، وأنا ألقى عليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضيء بها ، فيما عسى يظلم عليك من نظائرها إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك ، ومطارح فكرك ، منها أن قال عز من قائل في سورة القصص في قصة موسى : ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ فذكر المجرور بعد الفاعل وهو موضعه ، وقال في يس في قصة رسل عيسى عليه السلام : ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ فقدم لما كان أهم يبين ذلك أنه حين أخذ في قصة الرسل اشتمل الكلام على سوء معاملة أصحاب القرية الرسل وأنهم أصروا على تكذيبهم وانهمكوا في غوايتهم مستشرين على باطلهم، فكان مظنة أن يعلن السامع على مجرى العادة تلك القرية قائلا: ما أنكدها تربة، وما أسوأها منبتًا، ويبقى مجيلًا في فكره: أكانت تلك المدرة بحافاتها كذلك، أم كان هناك قطر دان أو قاص منبت خير ،

منتظرًا لمساق الحديث، هل يلم بذكره؟ فكان لهذا العارض مُهِّما فكما جاء موضع له صالح ذكر بخلاف قصة موسى"[١]

وعندما تُعمل نظرك في بيان السكاكي السابق عن سر التقديم والتأخير في الآيتين تجد أنه لم يهجم مباشرة على بيان مقصودة ، بل وضع في صدر بيانه إشارات واضحة ، ومعالم بارزة ، تستحق أن تكتب بماء الذهب ، راجع قوله:" وأنا ألقى عليك من القرآن عدة أمثلة مما نحن فيه لتستضيء بها ، فيما عسى يظلم عليك من نظائرها إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك ، ومطارح فكرك" فهذه العبارة وحدها كفيلة بأن تدفع عن السكاكي كل ما رُمِيَت به بلاغته من تهم الجفاف والتعقيد والجمود ، فهو من خلال هذه العبارة يدرب عقل القارئ على النظر في النصوص المتشابهة – التي قصد ذكرها قصدًا – ويشجعه على تذوق بيانها، وسبر أغوارها ، فهو بذلك لا يُلقِنُنَا قاعدة جافة ، بل يفتح لنا آفاقًا واسعة للنظر والتدبر ، وكأن السكاكي يريد أن يجعل من الشواهد التى ذكرها في كتابه إشارات يُستَضَاء بها لدفع حجب الظلام عن غيرها من الشواهد التي لم يتعرض لها، كما تأمل عبارته " إذا أحببت أن تتخذها مسارح نظرك، ومطارح فكرك" فهو هنا يدعو القارئ إلى أن يُعمل عقله وفكرة ، وأن يُقلِب نظرة في تلك النصوص المتشابهة، وأن يعايشها بعمق وصدق وروية ، وأن يعاود فيها النظرة بعد النظرة لييستخرج لآلئها وأصدافها ، وتأمل صيغة الجمع في لفظتي: (مسارح ومطارح) فهي ناطقة بمراده ومقصوده وهو البعد عن السطحية في معالجة التحليل البلاغي واستنباط أسراره، وهذا هو الأساس الأول الذي قامت عليه بلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني والشيخ الزمخشري . وبعد ذلك استنبط السكاكي بذوقه المثقف وجه

(١) مفتاح العلوم : ٣٤٤

التقديم والتأخير مستعينًا بالسياق الخاص والعام للآيتين، ولم يكتف بالسبب العام الذي ذكره أكثر البلاغيين وهو الاهتمام .

وإن أردت مزيدًا من الشواهد فتأمل حديثه الرائق عن السر البلاغي للإطناب في قوله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (سورة البقرة : ١٣٦) قال السكاكي : "وأوثر الإطناب فيه على إيجازه وهو آمنا بالله وبجميع كتبه لما كان بمسمع من أهل الكتاب فيهم من لا يؤمن بالتوراة وبالقرآن وهم النصارى القائلون ليست اليهود على شيء ، وفيهم من لا يؤمن بالإنجيل وبالقرآن وهم اليهود، وكل منهم مدعٍ للإيمان بجميع ما أنزل الله تقريعا لأهل الكتاب وليبتهج المؤمنون بما نالوا من كرامة الاهتداء"

والمُلاحَظ في تعليق السكاكي السابق أنه لم يكشف عن السر البلاغي للإطناب في هذه الآية بعيدًا عن طبيعة المتلقى للنص ، وهذا درس مهم لدارس البلاغة ، فيجب عليه أن يجول بفكره وعقله في أحوال المتلقى للنص ، كما يتضح من تعليقه أيضا أنه يضع أمام القارئ البدائل الأسلوبية التي لم تُذكَر ، وتتمثل في قوله : (آمنا بالله وبجميع كتبه) وهذا أساس مهم من أساس التذوق البلاغي لم يغب عن السكاكي في تناوله وتحليله ، كما يظهر من تعليقه أنه تفطن لما أفاده الإطناب من اللوم والتوبيخ لأهل الكتاب ، وطمأنة المؤمنين وتبشيرهم بالسرور والكرامة والاهتداء.

ولم يكن السكاكي من الذين يقتصرون على دراسة الآية موطن الشاهد البلاغي فحسب ، بل كانت له رؤية أوسع وأعمق ، فكان ينظر للسياق بأكمله ، يربط بين أجزائه ، ويبحث عن سر انسجام كل آية في موطنها ، وأبلغ دليل على ذلك حديثه الصاف المعجب عن الدلالات البلاغية المستفادة من التعبير

بـ (ما) الاستفهامية في سورة الشعراء ، حيث يقول: " أما (ما) فللسؤال عن الجنس ، تقول ما عندك بمعنى: أي أجناس الأشياء عندك ؟ وجوابه: إنسان ، أو فرس ، أو كتاب ، أو طعام ، وكذلك تقول : ما الكلمة وما الاسم وما الفعل وما الحرف وما الكلام ؟ وفي التنزيل فما خطبكم؟ بمعنى: أي أجناس الخطوب خطبكم؟ وفيه: ما تعبدون من بعدي؟ أي: أي من في الوجود تؤثرونه في العبادة؟ أو عن الوصف تقول: ما زيد وما عمرو؟ وجوابه: الكريم أو الفاضل وما شاكل ذلك، ولكون (ما) للسؤال عن الجنس وللسؤال عن الوصف وقع بين فرعون وبين موسى ما وقع ؛ لأن فرعون حين كان جاهلًا بالله معتقدا أن لا موجود مستقلًا بنفسه سوى أجناس الأجسام اعتقاد كل جاهل لا نظر له، ثم سمع موسى قال: أنا رسول رب العالمين سأل بما عن الجنس سؤال مثله فقال (وما رب العالمين) كأنه قال أي أجناس الأجسام هو وحين كان موسى عالما بالله أجاب عن الوصف تنبيها على النظر المؤدي على العلم بحقيقته الممتازة عن حقائق الممكنات ، فلما لم يتطابق السؤال والجواب عند فرعون الجاهل عجب من حوله من جماعة الجهلة، فقال لهم (ألا تستمعون) ، ثم استهزأ بموسى وجننه فقال (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) وحين لم يرهم موسى يفطنون لما نبههم عليه في الكرتين من فساد مسألتهم الحمقاء واستماع جوابه الحكيم غلظ في الثالثة، فقال: (رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) ويحتمل أن يكون فرعون قد سأل بما عن الوصف لكون رب العالمين عنده مشتركا بين نفسه وبين من دعاه إليه موسى في قوله : (أنا رسول رب العالمين) لجهله وفرط عتوه وتسويل نفسه الشيطانية له ذلك الضلال الشنيع من ادعاء الربوبية وارتكاب أن يقول أنا ربكم الأعلى ، ونفخ الشيطان في خيشومه أولئك بتسليم البهائم له إياها وإذعانهم له بذلك ، وتلقيبهم إياه برب العالمين ، وشهرته فيما بينهم بذلك على درجات دعت السحرة إذ عرفوا الحق وخروا سجدا لله وقالوا: (آمنا برب العالمين) على

أن يعقبوه بقولهم (رب موسى وهارون) نفيا لاتهامهم أن يعنوا فرعون، وأن يكون ذلك السؤال من فرعون على طماعية أن يجري موسى في جوابه على نهج حاضريه لو كانوا المسئولين في وجهه بدله فيجعله المخلص لجهله بحال موسى وعدم اطلاعه على علو شأنه إذ كان ذلك المقام أول اجتماعه بموسى بدليل ما جرى فيه من قوله " أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين "[1] فالسكاكي في التعليق على النص السابق لم يكتف بتحليل الآية موضع الشاهد التى اشتملت على (ما) الاستفهامية فحسب ، بل قام بتحليل السياق كاملاً ، وفي هذا رد قاطع على من يدعي أن بلاغة السكاكي بلاغة قاصرة النظر على المفردة أو الجملة موضع الشاهد فحسب، ولا تُعنَى بالنظرة الكلية الشمولية للنص.

(١) مفتاح العلوم: ٣١٠-٣١١

الخاتمة
(نسأل الله حسنها)

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، له الحمد والشكر إذ منَّ علي وأعانني على إتمام هذه الدراسة ، ولا شك أنه لا يمكن أن تستوعب الخاتمة كل ما توصلت إليه من نتائج ، وما سأقترحه من توصيات ؛ لذلك سأقتصر في هذا المقام على الإشارة إلى أهم النتائج، ويمكن إجمالها في النقاط الآتية:

١-كان للنقد الشديد اللاذع الذي وجهه الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي وكتابه مفتاح العلوم أثر سلبي بالغ الخطورة ، وصدى كبير ضارعلى السكاكي ومنجزه العبقري ، فلم يسلم السكاكي من اللوم والنقد على مر السنين دون تثبت أو تحقيق ؛ لأن آراء الدكتور شوقي ضيف وتوجهاته كانت محل تقدير واهتمام من طلابه الذين أصبحوا أعلامًا في الاوساط الثقافية العربية.

٢-لم يكن الدكتور شوقي ضيف موضوعيًا في غالب نقده للسكاكي ، ولم يخل أسلوبه من السخرية والتجريح في السكاكي وفي كل من سلك دربه ، كما أن أحكامه على السكاكي كان أكثرها مبنيًا على استقراء ناقص، فقد اقتصر في نقده لكتاب مفتاح العلوم على الجزء الخاص بالبلاغة ، مع أن هذا ليس مقصود السكاكي ، كما أن المفتاح لم يكن كتابًا في البلاغة خاصة ، بل هو مشروع كبير في علوم الخطاب.

٣-لم يميز الدكتور شوقي ضيف بين السكاكي وغيره ممن حاولوا ضبط مسائل البلاغة وتقنينها وتقعيدها، سواء من سبقه في هذا السبيل كالإمام الرازي، أو من اتبع طريقه واقتفى أثر مفتاحه مثل بدر الدين بن مالك ، والخطيب القزويني وشراح تلخيصه ، فقد حشدهم جميعًا في زمرة واحدة ،

وخصص لهم الفصل الرابع من كتابه (البلاغة تطور وتاريخ) وأدرجهم تحت عنوان : (التعقيد والجمود) ولم يلتفت لمقدرة السكاكي العجيبة في تأسيسه للمشروع الأكبر (علم الادب) الذي يحوى علوم الخطاب : (الصرف، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والقوافي والأوزان، وعلم الاستدلال).

٤-لم يتنبه الدكتور شوقي ضيف وهو يتعرض بالنقد لبلاغة السكاكي إلى أنها كانت امتدادًا معرفيًا للبلاغة العربية في عصرها الذهبي ، بدلائل كثيرة : أهمها استصحابه لجملة من شواهد الإمام عبد القاهر الجرجاني والعلامة الزمخشري ، فلم يحدث أن قام السكاكي بوضع بلاغة جديدة أحدثت قطيعة معرفية وحضارية ، بل ما زالت بلاغته مرتبطة بإعجاز القرآن العزيز والبيان العربي العالي، وكل ما فعله السكاكي في مفتاحه هو أن قام بتحديث البناء المعرفي للبلاغة العربية ، والتحديث لا يعني الانقطاع ، بل يعنى الاتصال والتطوير: الاتصال بما أنتجته القرائح العظيمة الفذة في عصر البلاغة الذهبي، والتطوير الذي أراد منه السكاكي استيعاب علم الأدب من خلال الإحاطة بالعلوم المتآخذة ، ذلك التعبير العبقري الذي ذكره في مقدمة المفتاح.

٥-انتقد الدكتور شوقي ضيف الإمام السكاكي بسبب سعيه لتحويل البلاغة إلى علم ، بأدق المعاني لكلمة علم – على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف– لكنه لم يلتفت لظروف عصر السكاكي الذى كاد أن يُقضَى فيه على العلوم الإسلامية والعربية، ولم يكترث لحال البلاغة وما وصلت إليه، وكيف صارت في حاجة ماسة إلى من يجمع شتاتها، ويضبط مسائلها، ويحيلها علمًا؛ حتى يتهيأ لطلاب العلم تعلمها والإفادة منها،

فالإمام السكاكي كان له دور كبير في الحفاظ على البلاغة من التشتت والضياع والتبديد، وهذا جهد يُحمَد عليه ويُشكر، لا يُذم عليه ويُعَاب.

٦- اتهم الدكتور شوقي ضيف الإمام السكاكي بفساد ذوقه البلاغي، وأرجع ذلك إلى أن نزعته العقلية واهتمامه بالجانب المعياري قد أثر تأثيرًا كبيرًا على حسه الفني، وتذوقه البلاغي ، كما قرر الدكتور شوقي ضيف أن السكاكي لم يكن يعتني بالنصوص الأدبية إلا ما كان يجلبه من الإمام عبد القاهر والعلامة الزمخشري، ولا توجد عنده تحليلات جيدة للنصوص البليغة ؛ لأنه كان ينقصه الملكة التى تستطيع التحليل البلاغي وإبراز مواطن الجمال الخفية فيها، وعند الرجوع لكتاب مفتاح العلوم؛ من أجل التحقق من هذا النقد، اتضح لي أن الحقيقة خلاف ذلك، فقد كان السكاكي كثيرًا ما يولى الذوق اهتمامًا كبيرًا، حتى جعله ملاك الأمر في علم البلاغة؛ لأنه روح البلاغة الذي يسرى في ثناياها، كما قرر أن الذوق هو الطريق الأوحد لإدراك إعجاز القرآن الكريم، وقد أكد في مفتاحه على أهمية الذوق في أكثر من موضع[١]، كما تبين لي أن السكاكي لم يقتصر في ذكر الشواهد على ما استصحبه من الإمام عبد القاهر والشيخ الزمخشري فقط، وما ورد عنده من هذا النحو فإنه لم يتوقف عند استصحابه دون تدخل منه للكشف عن الدقائق والأسرار التى لم يتعرض لها الإمام عبد القاهر والعلامة الزمخشرى، كما أضاف السكاكي في كتابه شواهد جديدة متنوعة من الكتاب الحكيم، والحديث النبوي الشريف، وعيون

(١) يراجع البحث : ص٢٢٢٨ وما بعدها.

الشعر العربي ، أثرى بها درس البلاغة ، كما تناول هذه الشواهد بتحليله الماتع الذي اعتمد فيه على حسه النقدي الفذ، وذوقه المرهف[1].

٧- أثبتت هذا البحث أن السكاكي كان على وعي نقدي إبداعي سابق لعصره، فقد تنبه منذ وقت مبكر لما أطلق عليه العلوم المتآخذة، وسعى نحو اجتماعها وترتيبها وفق منهج معين لتُشكِلَ بنية منهجية مترابطة وثيقة غير قابلة للتفكيك والتجزئة، وأي محاولة لتفكيكها يُذهِب بلبابها، ويخفى عن القارئ هدف السكاكي من كتابه.

التوصيات:

١- يجب على الباحثين والمهتمين بالدرس البلاغي العربي إعادة قراءة مفتاح العلوم قراءة جديدة تطمح إلى التأصيل والتطوير، تلك هي القراءة المثمرة التى نرجو من خلالها إحياء علوم العربية كلها، لا البلاغة وحدها؛ لأن صيغة السكاكي في مفتاح العلوم استطاعت أن تحكم وتضبط مجمل التراث اللغوي صرفًا ونحوًا وبلاغةً ، فهو بحق مفتاح للعلوم، ويحتاج لإعادة استثمار وتوظيف لا تجريح وتشويه.

٢- لا يزال تراثنا البلاغي والنقدي في حاجة ماسة لقراءات جديدة جادة؛ لأن جل القراءات السابقة لتراثنا إما أن تحمل أحكامًا عامة غير دقيقة، أو تفرز أحكامًا جزئية إقصائية غير موضوعية.

٣- يجب علينا أن نحسن التعامل مع تراثنا العربي، فلا نسعى للتشكيك فيه، والنيل منه دون تثبت أو تحقيق، كما أنه من الجهل والخطل أن نركض لهدم حضارتنا العربية والإسلامية التى أنارت العالم بنور العلم والمعرفة

(١) يراجع البحث ص : ٢٢٣٨ وما بعدها .

آلاف السنين حتى يومنا هذا، فلا ينبغي أن نردد الشائعات دون مراجعة وتحقيق ؛ لأننا بذلك ننال من تراث أمتنا التي صار أعداؤها من الداخل أكثر من أعداء الخارج ، بل يجب علينا أن نعالج بحذر وأن نشتغل بروية متسلحين بأدوات العلم في العصر الحديث – ولا سيما – مع الذين أرسوا دعائم العلم وأصوله، وأقاموا منهجاً علمياً تعليميًا رصينًا كالسكاكي – رحمه الله ورضي عنه– .

وفي الختام لا أدعي أنني قد بلغت الغاية في هذا البحث؛ لأن ذلك أمر عظيم لا يبلغه أحد إلا الراسخون في العلم ، فما الشأن بمن كان مثلي قليل البضاعة ضعيف الصناعة ، لكنها خطوة على الطريق أرجو أن يجد القارئ فيها أي بريق ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعصمني من فساد القصد ، وضلال الرأي ، وأن يوفقني للصواب ، ويحفظني مما يُذّم ويعاب ، وأن يلهمني الحكمة وفصل الخطاب ، وأن يقيل عثرتي يوم الحساب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسى، مطبعة مدينة ليدن المحروسة عام ١٩٠٦م.
- الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم : عصام الدين الحنفي، ت: د عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت (بدون تاريخ)
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة :جلال الدين السيوطي ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، صيدا (بدون تاريخ)
- البلاغة العربية قراءة أخرى : د/ محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان– الطبعة الأولى: ١٩٩٧م .
- تاريخ آداب اللغة العربية– جرجي زيدان ، مؤسسة هنداوي: ٢٠١٣م.
- التلخيص في علوم البلاغة : جلال الدين القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ، ط/ ١، ١٩٠٤م.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية : عَبْد القَادِر القُرَشي، ت: عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر: ١٤١٣ – ١٩٩٣
- دلائل الإعجاز: الإمام عبد القاهر الجرجاني ت: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي – مطبعة المدني:١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي ، ت : عبد القادر الأرناؤوط ، دار ابن كثير: ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

- شوقي ضيف أستاذية لا تُنسَى : عبد الستار الحلوجي وآخرون، بحث منشور في مجلة تراثيات الصادرة عن دار الكتب والوثائق القرمية المصرية ، العدد السادس ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح : بهاء الدين السبكي ، دار الكتب العلمية ، بيروت: ٢٠١٧م.
- عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي ، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية: ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.
- في الوعي بمصطلح نقد النقد وعوامل ظهوره : د/ نجوى الرياحي القسطنطيني.
- قراءة التراث النقدي : د/ جابر عصفور، دار سعاد الصباح، ١٩٩٢م.
- قراءة في نقاد نجيب محفوظ ملاحظات أولية : د/ جابر عصفور ، مجلة فصول، م١، ع٣، أبريل، ١٩٨١م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل : أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري جار الله ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ .
- المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطعٍ في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها، المعروف باسم صحيح ابن حبان: ابن حبان ، ت: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم : سعد الدين التفتازاني ، ت: د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة: ٢٠١٥م.

- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): ياقوت الحموي، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي: ١٩٩٣م.
- معي : د شوقي ضيف ، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.
- مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف السكاكي ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زوزو، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية:١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، ت: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب ، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني ، ت : د/ محمد عبد المنعم خفاجي - دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٣م.
- مقدمة في أصول النقد : شكري محمد عياد، دائرة الإبداع، مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية، دبي، الامارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٢٢٠١
التمهيد	٢٢٠٤
المطلب الأول: الإمام السكاكي ومنهجه في كتابه مفتاح العلوم	٢٢٠٥
المطلب الثاني: الدكتور شوقي ضيف وتقييمه للمنجز البلاغي للإمام السكاكي	٢٢١١
المطلب الثالث: التعريف بمفهوم نقد النقد	٢٢١٥
المبحث الأول : نقد الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي بسبب التعقيد والجمود (عرض، وتحليل، ونقد)	٢٢١٧
المبحث الثاني : نقد الدكتور شوقي ضيف للإمام السكاكي بسبب فساد الذوق (عرض ، وتحليل ، ونقد)	٢٢٢٨
الخاتمة والتوصيات	٢٢٤٤
فهرس المصادر والمراجع	٢٢٤٩
فهرس الموضوعات	٢٢٥٢